مملكة الألماس

رحلة في بلاد العربية السعيدة

للكاتب الايطالي الذائع الصيت سلفاتور أبونتي

عربه من الايطالية

طه فوزي

موظف بمحكمه استئناف مصر الوطنية
ومدرس اللغة الايطالية بمدرسة الفنون الجميلة العليا

حقوق الطبع محفوظة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

الاهداء

الى مقام صاحب الجلالة الامام يحيي بن محمد حميد الدين
محرر اليمن وأبى اليمنيين

أهدى هذا الكتاب

المعرب

موضوعات الكتاب

	صحيفة
الاهداء	..
تمهيد ـ للعرب	١
فراديس فى الخيال	٣
فى مجاهل تهامة	١٧
بكره . إن شاء الله	٣٠
صنعاء عرش اليمن	٤٣
ملك العربية السعيدة	٥١
جمعة رمضان	٥٨
جلسة طريفة مع الامام	٦٥
الايمان الى اليمين	٧٥
الكنيس المخبوء	٨٦
عاهل بلاد العرب	٩٢
بلاط يحيى بن محمد	١٠٢
أحمد سيف الاسلام	١١١
مصيف الامام	١١٩
نبأ من سبأ	١٢٦
خاتمة	١٣٤

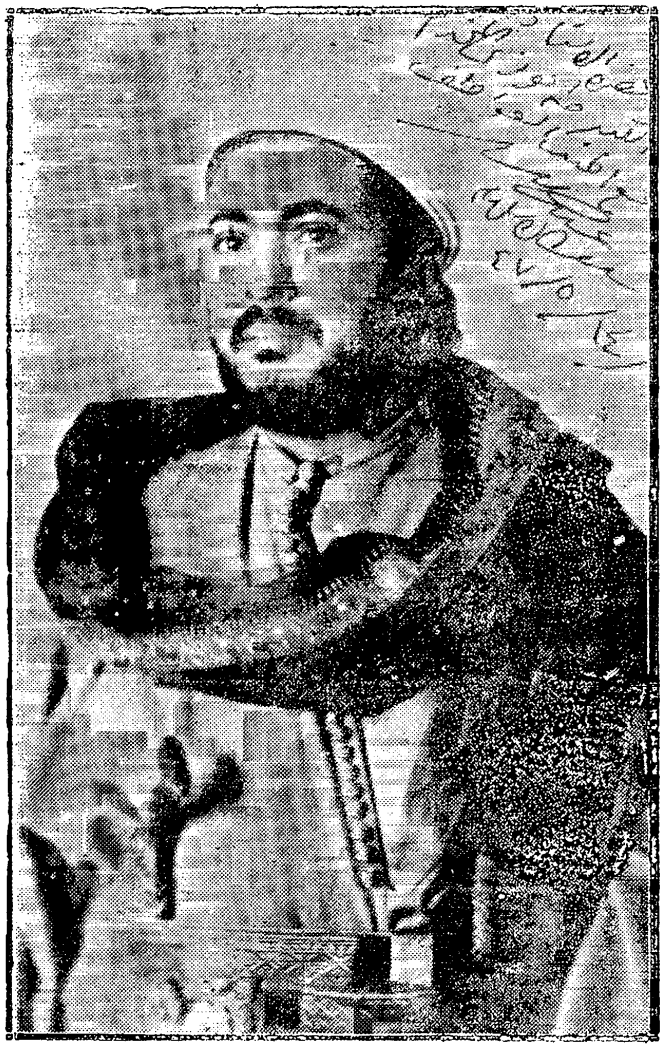

حضرة صاحب السمو الملكى الأمير
سيف الاسلام عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

شغفت من عهد بعيد بمطالعة مؤلفات الرحالة وكتب السائحين الأوروبيين الذين وفدوا منذ القرون الوسطى حتى العهود الأخيرة على مصر وبلاد الشرق العربي فقرأت منها الشيء الكثير ولا سيما ما كتبه السائحون الايطاليون الذين كانوا أول من اتصل من أهل الغرب بالشرقيين من أمثال شيريا كو دى أنكونا وفريسكوبالدى وروزولينى دى بيزا وبيترو ديلا ڤالى وجيوفانى بلسونى دى بادوفا وروبيكى بريكيتى والسيدة آنى فيفانتى وغيرهم الذين زاروا مصر والشرق الأدنى والذين قصوا علينا فى مؤلفاتهم الثمينة كثيراً من الاخبار الطريفة والاوصاف الممتعة عن بلاد الشرق وآثارها وأهلها من بدو ومن حضر وذكروا الكثير من عاداتهم وصناعاتهم وطبائعهم وقد أتيح لى فى السنوات الأخيرة على أثر استماعى للمحاضرات الشائقة التى كان يلقيها عن البلاد اليمنية الاستاذ المأسوف عليه المستشرق الايطالى الكبير نالينو بالجامعة المصرية وفى قسم الثقافة العليا بجزيرة رودس — أن أعنى عناية خاصة بمطالعة ما كتبه بعض هؤلاء الرحالة والعلماء عن بلاد العربية السعيدة من أمثال لودفيك دى فارتيما الايطالى الذى قام برحلته الى الشرق من عام ١٥٠١ حتى عام ١٥٠٨م والذى كان أول أوروبى وضع دليلا قيما عن أسفاره فى مصر والشام والحجاز واليمن وبلاد فارس والهند وسيلان وملقا . ومن أمثال العالم الأثرى آرنو الذى وضع رسالة عن « رحلته إلى مارب » ورسالة أخرى عن « طائفة الأخدام فى اليمن » ونشأتها وعاداتها وطباعها إلى غير ذلك . ومن أمثال « بوتا » الذى وضع مؤلفا عن رحلته فى العربية السعيدة كما طالعت تلك الرسائل الممتعة التى كان يرسلها الاخوان لويجى وجوزيبى كاپروتى — اللذان عاشا مدة فى اليمن — إلى « جمعية الاستقصاء التجارية الافريقية » فى ميلانو

ورحلة أخرى لمؤلف مجهول قام بها فى بلاد العربية السعيدة من عام ١٧٠٨ حتى عام ١٧١٠ وطبعت فى مدينة البندقية فى ١٧٢١ م — وكتاب « ثلاثة أعوام فى اليمن » الذى وضعه رنزو مانزونى وكتاب نيبوهر (وصف بلاد العرب) وكتاب ج . ب . روسى «اليمن» الذى وصف فيه بلاد اليمن وتربتها ونباتاتها وعطورها . والكتاب الذى وضعه الدكتور انسالدى (اليمن) الذى احتوى على تاريخ مختصر لليمن ووصف دقيق بارع لاحوالها ومناخها وكبار شخصياتها ثم أخيرا هذا الكتاب (مملكة الامام يحى) الذى وضعه من نحو عشرة أعوام الكاتب الايطالى الذائع الصيت والصحفى القدير «سلفاتور اپونتى» واسماه (خفايا الحياة فى العربية السعيدة) وأستطيع القول بأن هذا الكتاب الأخير كان أكملها وأتمها وأوفاها جميعاً وكان أدقها تعبيراً وأصدقها تصويراً وأبرعها أسلوبا فقد تحدث مؤلفه الفاضل حديث الرجل الخبير الدقيق الملاحظة والمحدث الحلو الحديث الذى امتاز بفضيلة الانصاف والبعد عن الهوى وعند ما تلوت هذا الكتاب راقتنى طريقة مؤلفه فى البحث ودقته فى الوصف فنقلت إلى العربية بعض فصوله التى انصف فيها الشعب اليمنى وأشاد بجهود مليكه العظيم جلالة الامام يحيى حميدالدين وبوداعة أهل اليمن ولطفهم ودماثة أخلاقهم وحلو معشرهم والتى وصف فيها المدن اليمنية الجميلة والهضاب العالية ذات المناظر الفتانة أجمل وصف ونشرتها تباعا فى « مجلة الرابطة العربية » وتصادف أن قدم فى هذه الاثناء إلى مصر حضرة صاحب السمو الملكى الامير سيف الاسلام عبد الله وكان لى حظ التشرف بمعرفته ولما عرضت على سموه بعض هذه الفصول أبدى — حفظه الله وأعز به دولة الأدب — رغبته الكريمة فى نقل هذا الكتاب النفيس إلى اللغة العربية وقد شجعنى سموه تشجيعاً لن أنساه وأمدنى ببعض معلوماته القيمة وملاحظاته الثمينة على بعض ما وقع فيه الكاتب من الهنات الهينات فكان لسموه الفضل الأول والاخير فى اخراج هذا الكتاب ووضعه فى متناول أيدى الناطقين بالضاد

أدام الله حياته وأبقاه نصيراً للادب والمتأدبين أنه سميع مجيب .

المعرب

١

فراديس فى الخيال

فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان من سنة ثلاثة وخمسين وثلثمائة وألف دخلت الأراضى اليمنية الواقعة تحت سلطة الامام يحيى بن محمد حميد الدين وكان أول شيء وقع عليه نظرى هو جزع شجرة عوجاء لم تفقدها السنون كل فروعها قد وقفت فى منتصف الطريق تمنع المرور وينتهى عندها كل أثر للمسير . ولم تكن العواصف والأعاصير مخطئة فى الابقاء عليها لأنها — وقد كان الى جانبها ثلة من الجنود من مختلف الأسلحة — كانت حارسة ذلك السد المنيع الذى يرسم الحدود الجنوبية لمملكة اليمن والذى يفرض على السائح الأجنبى قفزة بهلوانية ترجع به الى ما وراء ستة قرون من الزمان .

وعلى مسافة كيلو مترين اثنين من الطريق كان يبدو للعيان الجمرك اليمنى وكان به ما يقرب من الخمسة عشر جنديا مسلحون كلهم حتى أسنانهم بينما كانت تبدو من خلال طيات عمائمهم المختلفة الألوان حزم صغيرة ظريفة من أعواد تشبه اعواد الريحان ، وكانت وجوههم الزيتونية الجافة تبتسم للغريب الذى يسمح له الامام بالقيام برحلة إلى صنعاء .

ولا يذهب إلى صنعاء كل من أراد ذلك . ومكة — كما هو معلوم — محرمة على غير المسلمين وكذلك هذه المدينة المقدسة فهى محكمة السد منيعة الجانب لا يدخلها من الأجانب إلا ذو حظ عظيم . لأنها تستقبل فى أحوال نادرة أحد الأجانب النادرين وكم رفضت الكثيرين من الراغبين فى زيارتها وأبقتهم بقسوة مريرة بعيدين عن أسوارها الطينية الغبراء .

وإن صعوبة الدخول فى مملكة اليمن تجعل السفر اليه من الأمور المحببة المرغوب فيها لأن ثمار الشجرة المحرمة هى أشهى الثمار فى كل زمان ومكان ، وقد قيل فى الأمثال : أحب شيء إلى الانسان ما منعا . واليوم بينما يستطيع كل انسان أن يذهب أنى شاء متى شاء ، وحيث أصبح كل ركن من أركان

المعمورة آهلا بالسكان معروفا للجميع . وأخذت صور معالمه ومغانيه بآلات التصوير ، وعرضت على لوحات السينما على ايدى الزائرين العديدين ، فان إمكان الدخول فى بلد مقفول يعتبر من الميزات الثمينة التى لا تقدر بمال ، وعلى الأخص إذا كان هذا البلد من بلاد العرب ، التى تجلب لنفس السائح بهجة الاكتشاف المزدوج : اكتشاف المكان واكتشاف الزمان .

ويتساءل الكثيرون عما إذا كانت بلاد العرب هى فى الحقيقة جزء من القارة الاسيوية لأن الخليج الذى يفصل شبه الجزيرة عن القارة السوداء لا يزيد اتساعه كثيراً على ذلك الخليج الذى يفصلها عن بلاد الفرس كما أن مواصلات البلاد العربية مع الغرب كانت دائما أكثر منها مع الشرق لأن جل الذين أتوا للاختلاط بالبذور السامية الذين تكون منهم شعب شبه الجزيرة الأول إنما جاءوا من شواطىء البحر الاحمر المقابلة ومع ذلك فان القارة الاسيوية المعروفة لنا بسيل المدنية القديمة المنهمر الذى أمد العالم بالانبياء والمحاربين والفلاسفة والذى وقفت مياهه ونضب معينه منذ قرون — لاتزال تعرف بعدم الثقة الغريزية فيها نحو الاجنبى — تلك الخصلة التى هى من خصائص الاسيويين والتى تبدو لنا تحت مختلف الاشكال فى كل مكان من بلاد الشرق

وتضاف الى الصعوبات السياسية التى يلقاها من يريد زيارة اليمن مصاعب السفر المادية اذ أن الانتقال فيها لا يمكن أن يتم بدون وسائل شاقة مضنية وبين مميزات اليمن الفريدة أنه لايمتلك كيلو مترا واحداً من السكك الحديدية وقد كانت هذه الميزة الفريدة على وشك الضياع فى العهد التركى عند ماحصلت شركة افرنسية على امتياز بانشاء خط سكة حديدية يمتد من الحديدة إلى العاصمة اليمانية ولكن جاءت الحرب العظمى الاوروبية الاولى فى سنة ١٩١٤ مبكرة وقبل الأوان واوقفت الاعمال فى هذا الخط بمجرد ابتدائها . وأما القضبان التى كانت قد مدت على مسافة قصيرة من الساحل فقد خلعها قطعة بعد أخرى أصحاب « السنابيك » الذين كان يسوءهم أن يعودوا من الحديدة بعنابر مراكبهم خاوية (ويقال ان الحكومة الافرنسية ترسل فى كل عام وبدون

انقطاع الى الحكومة اليمانية مذكرة تلح فيها بطلب تعويض عن الخسائر التى تحملتها الشركة صاحبة هذا الامتياز وان الامام يستقبل هذه المذكرات بابتسامة ويودعها ضمن محفوظات الدولة واضابيرها) .

وفضلا عن ذلك فان الطرق فى اليمن غير متوفرة والى سنوات قليلة كانت البلاد تجهل كل الجهل استعمال العجلات ، اذ كانت تستعمل الخيول العربية الكريمة للرؤساء والكبراء ، كما كانت تستعمل الجمال والحمير والبغال لنقل الاحمال . ومن المعلوم أنه فى البلاد الاقل مدنية فى أفريقيه بدأت الجمال تفقد بسرعة ما قدر لها كدواب للحمل ولكن بلاد العرب بقيت البلاد الوحيدة التى تكثر فيها القوافل التى تزيد فى بهجة مناظرها العظيمة الخلابة .

أما الآن فقد ظهرت هنا أيضا السيارة ولكنها تبدو كشىء دخيل وتعتبر كأعوبة خفيفة متأرجحة رجراجة غير أمينة وكان استعمالها سببا فى هياج بعض رؤساء الدين وثورتهم وهاهم أولاء لا يزالون إلى اليوم لا يستطيعون اخفاء كراهيتهم واستنكارهم عند ما يرون أراضى اليمن المقدسة يشوهها ظهور تلك الآلة الجهنمية ، على أن معظم السيارات القليلة التى استحضرت لا تزال باقية بدون استعمال أو تسير حتى يصيبها شىء من العطب فى المدرجات الصخرية أو على سفوح الجبال ثم تترك بدون اصلاح . وقد حصل أحد « سيوف الاسلام » أى أحد أبناء الامام على بعض السيارات وأجرها لبعض الأفراد وحذا حذوه بعض الرؤساء الآخرين . ولكن هذه الوسيلة من وسائل النقل المسيطرة على حياة الغرب إنما هى هنا بالنسبة لمن يستعملونها ليست إلا من الأشياء الكمالية التى لا يقصد بها إلا الزخرف وحب الظهور ولا شىء غير ذلك .

أما أعمال البريد فى اليمن فانها بالرغم من بطئها تؤدى وظائفها بمنتهى الدقة والنظام ويقوم بها « سعاة » يسيرون على أقدامهم مسافات تقدر فى بعض الأحيان بالثلاثين أو الأربعين من الكيلو مترات ولا يركبون الجمال والبغال الا فى بعض المناطق فقط .

ومما لا شك فيه أن السيارة سوف تفرض نفسها أيضا فى بلاد العربية

السعيدة إن عاجلا أو آجلا ، وكذلك سوف تنشأ هنا فى آخر الأمر بعض الطرق التى تظهر عليها تلك اللعب الاوروبية قليلة الارتجاج ، وسوف تفقد فى نظر بعض اليمنيين المتنطعين صفتها الشيطانية ، فقد افتتح منذ سنتين للمواصلات بكثير من الجرأة والشجاعة طريق السيارات الذى يبدأ من صنعاء إلى الحديدة والذى يربط الهضاب الغنية بالسهل والبحر كما يوجد الآن طريق آخر هو طريق « عدن — تعز » .

وبعد امضاء معاهدة الصداقة التى أبرمت فى شهر فبراير من عام ١٩٣٤ اتفقت الحكومة اليمنية مع السلطات الانجليزية على ضرورة فتح بلاد اليمن للتجارة والتعامل مع عدن لمصلحة البلادين وقد أعلن رسميا إتمام الأعمال فى الطريق الجديد ، ويظهر الآن شريانه على خريطة بلاد العرب واضحاً كل الوضوح ، على أنه توجد طرق أخرى كثيرة تظهر بشكل عظيم فى خرائط أفريقيا وآسيا ولكنها اذا ما بحث عنها على الطبيعة كان من أصعب الأمور العثور عليها وهذا هو ما دعا السائق « مسعودعوض » الذى له خبرة ومقدرة فريدة على قيادة السيارات فى الأراضى اليمنية والذى كلف بنقلى فى سيارته المتينة من عدن إلى صنعاء وما جعله يستصحب معه مساعده « أحمد عبده » الذى كان أول واجباته أن يدلنا على الطريق السوى ، وأن يساعدنا عندما يقتضى الحال أو عندما ينقطع أثر الاقدام .

وكان الى جانب السائق ومساعده الخادم « عبد القادر » أحد أفراد قبيلة الاخبارى الذى كان يتكلم الايطالية بطلاقة لأنه خدم مدة من الزمن أحد قناصل إيطاليا وذهب معه حيث بقى وقتا طويلا فى مدينة « سيينا » بايطاليا وكان يتحدث معى بدون تكليف . أما السيارة فلم تكن لتتسع لكثير من الناس غير من ذكرت لأنها كانت مشحونة بالأمتعة وقطع الغيار التى كان من المحتمل أن تصبح ضرورية وكان بها أيضا مقدار كبير من المؤونة من البنزين والزيت فضلا عن الأمتعة التى كانت تشتمل على الحقائب ، وعلى كمية عظيمة من الاشياء التى تكاد تكون السياحة فى الوقت الحاضر قد نسيتها تماما ، هى ماء للشرب فى زمزمية من زمزميات الميدان وعدة علب من المأكولات

المحفوظة وكان هناك أيضاً كيس من شأنه زياده الحمل زيادة كبيرة وهو كيس النقود لأن الشعب اليمنى ليست له ثقة فى قطع الأوراق التى يتعامل بها الناس فى البلاد الأخرى كنقود اذ أنه فى اليمن كما فى بلاد الحبشة يستعمل ريال « ماريا تيريزا » الذى تنحصر قيمته فى وزنه وانه وأيم الحق لعملة تدعو للاطمئنان ولكن حملها ثقيل متعب . وكان فى هذا الكيس الف من الريالات لايقل وزنها عن الثمانية والعشرين من الكيلو جرامات .

كل أولئك قد صف ونظم بعناية كبيرة فى داخل العربة وعلى أطرافها وعلى حمالاتها ورفارفها وجلس « عبده » فوق صفائح البنزين والحقائب وهو واثق من أنها تحمى رأسه من الاصطدام بسقف العربة وقد أتم « أحمد » الرحلة وهو جالس فوق الحمالة متحاشياً بما أوتيه من ثبات عظيم من السقوط فى الحقول عند كل هزة عنيفة تهتزها السيارة .

بهذه الحمولة الكبيرة وبهذه الحاشية الفاتنة سافرنا من عدن فى الفجر وكان المسلمون الصالحون لايزالون على شاطىء البحر وأرجلهم مدلاة فى المياه حيث يقومون بوضوئهم الدينى الجليل وقد وقفوا كلهم بعدذلك فى صفوف متراصة كأنهم فى انتظار القيام باستعراض عظيم . وقد سرنا بسرعة عظيمة تاركين عن يسارنا ذلك المنظر البهيج لتلك الأهرام المصطفة من الملاحات الايطالية على حافة المستنقع المملوء بالمياه ومضينا قدما بين الحدائق الغناء والقفار المكفهرة فى بلدة « الشيخ عثمان » .

وبعد وقفة قصيرة وقفناها فى جرك سلطنة لحج رأينا أوحالا وخرقا وحظائر للجمال ومراقد وأرائك ومقاعد صنعت كلها من أغصان الصفصاف ممتدة على طول الطريق كما شاهدنا وجوهاً تبدو عليها آثار النوم وخناجر دمشقية ونرجيلات فخمة متعددة الألوان والأحجام وبعد كل ذلك مباشرة ها نحن أولاء نأخذ طريقنا ونتجه نحو بلدة « المسامير » مارين بعدة قوافل من الابل تتفرق عند ظهور السيارة فى السهل الرملى المجدب الذى تظهر عليه من وقت لآخر بعض الأعشاب القليلة المبعثرة هنا وهناك ونقابل على سفوح الجبال على حين بغتة واحة « لحج » واذا بها تضم حقولا يانعة مملوءة بأشجار

المانجو العالية ذات الأوراق الخضراء الكثيفة وشجيرات الموز الفخمة ذات الرائحة العطرية الفيحاء وحقول الأعشاب الطبية التى انتظمت بين صفوف النخيل . وتضرب هذه المزروعات حلقة خضراء حول تلك المدينة المنعزلة المكونة من بيوت حقيرة بنيت بالطين والتى تضم أيضا بعض القصور ذات الزخارف التى تبهر النظر وتسر الخاطر وبعد أن يتخطى الزائر ميدانا فسيحاً غير منتظم الشكل كانت تتمرن فيه بعض العساكر بدون حماسة ظاهر على استعمال المتراليوزات يظهر بناء عظيم من طراز لا يمكن وصفه وليس من السهل تعريفه كله شرفات وكله أعمدة وكرانيش وزخارف من الرخام يبهر النظر كتب على واجهته بأحرف عربية واضحة وبخط عريض « قصر السلطان عبد الكريم فضل » وقد وضعت ورقة يميل لونها للاصفرار ثبتت بثلاثة مسامير قديمة على باب البناء الذى يفتح فى سور الحديقة وكتب عليها أن الدخول ممنوع ولكن الأجانب الذين يتخطون حدود السلطنة بجواز مرور من مقر حكومة عدن يستقبلون بكل ترحيب وإكرام .

وقد قبل سلطان لحج مع الشكر حماية بريطانيا ومعاشاً سنويا يتقاضاه منها ويعيش عيشة راضية مطمئنة ويحكم بدون قسوة ولا شدة رعاياه المخلصين كما أنه يحصل بدون هوادة الرسوم الجمركية من القوافل التى تخترق أرض بلاده وهو يتلطف بتقديم بعض جنوده للمسافرين من ذوى الحيثية والمقام يرافقونهم فى عربة قديمة حتى الحدود اليمانية . وقد استعملت السياسة البريطانية منذ عهد بعيد طريقة المرتبات للسلاطين والأمراء والشخصيات الكبيرة ذات النفوذ وهى طريقة لا بأس بها ولو أنها لقيت بعض النقد الشديد من بعض الانجليز الذين يجدون أنها تكلف خزانة الدولة مالا كثيراً وتعتبر اسرافا لاموجب له وفضلا عن ذلك فان انجلترا قد ناطت منذ عدة سنوات مسألة اكتساب صداقة سكان البلاد العربية وثقتهم بمصلحتين من مصالحها احداهما « المكتب العربى » بالقاهرة وثانيتهما « المكتب الهندى السياسى » بمدينة دلهى ويحدث غالباً أنه عندما يسند المكتب المصرى أحد الأمراء ويدفع له راتباً يكون المكتب الهندى يسند خصمه

ويدفع له رانباً آخر وأظهر حادث من هذا النوع كان تلك المساعدات القيمة التى قدمت بسخاء للحسين ملك الحجاز الأسبق الذى كان المكتب العربى يعضده ويعمل على توحيد كل شبه جزيرة العرب تحت سلطانه والذى طرح جانباً وتخلى عن سلطته لابن السعود الذى طالما لفت اليه المكتب الهندى عبثاً أنظار لندره وحكومتها .

أما سلطان لحج فهو رجل مهذب طيب القلب كريم الخلق جل همه هو تشييد القصور ذات الزخارف المتنوعة والطراز الغريب وقد شيد قصراً فى عدن فى حى « كراتز » اعتاد أن يذهب إليه من آن لآخر فى سيارة فخمة يقودها سائق حافى القدمين والانجليز يدعونه يفعل مايشاء ولا يعارضونه ولا يحتجون على هذا المنظر المنافى للذوق والذى لايتفق مع جلال السلطنة وهيبة الملك . وسلطنة لحج هى أهم وأشهر جزء فى « المحميات » .

وبعد لحج بقليل يبتدىء الطريق الجديد الشهير وفيه تزداد آلام المسافر ومصاعبه فان آثار الاقدام تختفى بين الجبال للبحث عن منافذ أقل وعورة وهانحن أولاء نندفع فى مجرى السيول ثم نصعد ثانية فوق الصخور حيث ترتفع الاعشاب ذات الفروع الطويلة وترتج السيارة ارتجاجات قوية وتشب بمقدمها وترتفع عن الأرض وهى تزأر زئيراً عالياً فوق تلك الطرقات المتكسرة وتخاطر بتخطى بعض القمم الصخرية ثم لاتلبث أن تنخفض وتزحف فى بعض القنوات الكبيرة بين لفائف ومدارج الصخور المتفرقة هنا وهناك ويغلى الماء فى خزانها غلياناً شديداً ولا يستطيع المسافر بأية حال أن يقطع مسافة تزيد على الخمسة عشر من الكيلو مترات فى الساعة وبعد كل مائة متر تقطعها كان يسأل بعضنا بعضا اذا كنا سنستطيع مواصلة السفر وعند ذلك تعود بى الذاكرة الى كلمة الكولونيل الذى رأيته فى دار الحماية البريطانية فى عدن والذى قال الى اننى سأكون أول من يقوم بالسفر فى سيارة وقطع المسافة كلها بين عدن وصنعاء ولكن هاقد خابت الظنون وضاع كل أمل فى الفخر لأن هذه انما هى رحلات كان من الخير أن نقوم بها على ظهور الابل على الطريقة القديمة فى قافلة بطيئة أمينة .

وبعد أن نتخطى الحدود اليمنية بقليل ها نحن أولاء نقف لنأخذ ماء من بئر وقفت إلى جانبه ثلاث فتيات يملأن منه جرارهن الحمراء الكالحة وإذ يرين نا يضحكن ويخفين عنا وجوههن وكانت كل حركة تبدو منهن تثير فى الجو رنينا معدنيا عظيما لأنهن كن من رقابهن إلى معاصمهن ومن خصورهن إلى كعوبهن كلهن أجراس من الحلى والأحجبة والتمائم . . . ترى هل هن جميلات ؟ فانهن بعد أن يتحدثن بما فيه الكفاية يدرن وجوههن نحونا فنرى ويالعجب ثلاثة وجوه قد طليت باللون الأصفر وهو لمسحوق اسمه « الهرد » يشبه الزعفران ولحسن الحظ أننا عندما اقتربنا من المدينة قابلنا نساء أخريات متحجبات وذلك لأن البدويات فى البلاد العربية هن وحدهن اللائى لايخفين وجوههن واللائى يخرجن سافرات فى الطرقات واذا كان السفور والغاء الحجاب معناهما التقدم والمدنية فما عسى يكون ذلك البلد الذى يكون فيه الريف والصحراء أكثر مدنية من المدن والبنادر ؟

هاهى ذى آثار الأقدام تتحسن تدريجيا ثم لا تلبث أن تظهر بوضوح وهاهو ذا الطريق يستقيم أمامنا (وسوف يكون الامام جد سعيد وسيسر كل السرور عندما أذكر له أن رجاله عرفوا كيف يمهدون الطريق فى بلادهم خيرا من رجال المحميات) ولكن يجب أن يكون من أندر الأشياء ظهور سيارة واحدة فى تلك المنطقة إذ أن الأهالى كانوا يجرون من القرى والدساكر ليتجمعوا فى طريقنا وكذلك كانت الماشية والابل تجفل خائفة مذعورة وكانت توجد فى بعض الوديان التى اخترقناها مراكز آهلة بالسكان وحقول يانعة خضراء على أن بعض الوديان الأخرى كانت تبدو كأنها الصحارى والقفار حيث لازرع ولا ضرع على أنها كانت كلها تحميها بعض التحصينات الأولية البسيطة .

وتعطى أشعه الشمس عند الغروب منظراً بديعا للاعشاب الكبيرة التى تخلع على أراضى البلاد ثوباً أنيقا من البهجة والجمال وعند أحد المعابر يثير الغبار جرى قطيع من الجمال تجفل خائفة .وتقطع شربها وعند مرورنا بأحد الوديان نجد قطعاناً لاعد لها ولا حصر من القردة تهرب عند رؤيتنا

وتصرخ صراخا يصم الآذان وتتساق فوق الجبال وهى تحمل صغارها فوق ظهورها .

وأخيراً نصل إلى تعز بعد الغروب عند ما تختفى الدور فى عمق الصخور السمراء وخلف المساجد الناصعة البياض التى تمتص آخر أنوار النهار والتى تبدو مآذنها الرشيقة العالية كأنها معلقة فى الفضاء .

***

تعز . . . أو تاعز . . . أو قل ماشئت ! فان الجغرافيين أنفسهم لايعرفون حق المعرفة حقيقة اسم هذه المدينة اللطيفة الوادعة التى تبزغ وسط واد من الوديان الفيحاء فوق منحدرات الكتلة الجبلية المسماة « صبر » . وتعز لاتتحدث كثيراً عن نفسها ولا تدعو أحداً للتحدث عنها خارج حدود البلاد ولو أنها كانت مدى قرنين ونصف قرن من الزمان حاضرة بلاد اليمن فى أيام بنى غسان الذين فتحوا مكة فى سنة ١٢٣٧ ولا تزال هذه المدينة تحتفظ من ذلك العهد ببهجتها التى تشهد على عظمتها بما فيها من المساجد والقباب ولأحد هذه المساجد مئذنة عالية لطيفة تميل بعض الميل كأنها برج مدينة « بيزا » الشهير . وكما تشهد على ذلك أيضا حصونها المقامة فوق المرتفعات كأنها الأكاليل أو التيجان على أنه لم يبق أى فخر عند أبنائها وسكانها الطيبين الذين هم شعب هادىء وادع يعيش محتبساً فى واديها الضاحك الفياح دون ان يهتم أقل اهتمام بما يجرى فى أنحاء العالم الأخرى .

وإن ظهور غطاء للرأس ذى شكل أوروبى فى طرقات مدينة تعز يعتبر حادثاً لايخلو من أهمية لأن الأشخاص الذين لمحونى لم يظهروا لأول مرة أقل اهتمام ولكنهم بمجرد أن تكاثر عددهم وأصبحوا عشرة هاهم أولاء يتشجعون ويأخذون فى تتبع خطوات الأجنبى وبعد قليل سرعان مايتزايد عدد هذا الجمع بالتدريج حتى يصبح جمهوراً غفيرا وبهذه الطريقة يتجمع نصف سكان المدينة الذين ينتهى اللطف وبدون مضايقة الاجنبى يأخذون فى السير خلفه فى رياضاته وتنقلاته ويأخذون فى إبداء اعجابهم مثله بمناظر حوانيت السوق الفتانة كما لو كانوا يرونها للمرة الأولى . وفى هذه الحوانيت

تباع الأحذية والمراكيب والنرجيلات المزركشة والحناء التى يخضب بها النساء اليمنيات أيديهن وأقدامهن كما تباع برادع الحمير والجمال ذات الألوان الزاهية والبخور المستكاوى والشعير والدخان والمر المكاوى والتبغ وكميات كبيرة من « القشر » الذى هو غلاف حبوب البن الذى يتخذ منه الأهلون شرابا لذيذا لاغنى لهم عنه . وإذا ما أسرع الأجنبى الخطى فانهم يحتذون حذوه وإذا ما وقف فجأة يجدهم كلهم من حوله ، وغنى عن البيان أنه لا توجد أية فائدة فى هذه العادة الغريبة للاجنبى الذى يدفعه حب الاستطلاع لتقصى الأشكال والعادات والذى يرغب فى رؤية كل شىء فى أقصر وقت ممكن .

ومما هو أقل سهولة وأعز منالا من ذلك — رؤية الأمير القوى الذى يحكم بلاد اليمن الجنوبية لأنه عادة لايقيم فى المدينة إذ جعل مقره فوق مرتفع « دار النصر » حيث يشرف منه على كل جزء من أجزاء مدينة تعز وللوصول الى مقره يقتضى الأمر مسيرة ساعة ونصف الساعة على متون البغال ولكن هل فى استطاعة الانسان أن يرغب عن معرفة شخصية عظيمة ذات أثر عظيم؟ ان السيد على الوزير هو الأمير الحقيقى الوحيد الموجود فى بلاد اليمن لأن غيره من الأمراء ماهم إلا قواد الجيش وهو منحدر من اسرة من اعرق الاسر فى البلاد العربية طالما أمدت شبه الجزيرة بالملوك والزعماء والقادة من عهد بعيد .

أخذت قافلتنا الصغيرة فى المسير بعد الفجر بقليل وكانت ترافقنا فى تلك الرحلة الطريفة الممتعة مفرزة من الجند بعضهم راكب والبعض الآخر راجل وتخرج من المدينة تاركين عن يميننا حى اليهود الحقير ونلازم الجبل صاعدين فى الحوض الجاف لاحد الوديان الذى تتدرج على جوانبه الحقول الصغيرة التى هى انموذج للزراعة الوطنية . وفى المناطق المقفرة على سفح التل تنتشر أعشاب كثيرة تبتدى بعدها حقول « القات » الشهيرة .

و« القات » هو شجرة متواضعة ولكنها ذات أهمية عظمى وأثر كبير فى حياة اليمن ومن السهل أن يقع فى الخطأ من أراد أن يحكم على هذه البلاد على أساس العوامل السياسية والاقتصادية التى من أهمها ثروة تربة اليمن الطبيعية وشخصية الامام الفريدة ودسائس الدول الاجنبية — بدون الاهتمام

بذلك النبات العجيب (أى القات) الذى يفتح أمام اليمنيين أبواب الفراديس الوهميـة والذى يفرض عليهم قواعد فريدة فى وجودها لان أهالى العربية السعيدة اعتادوا من عدة قرون مضت مضغ أوراقه ولهذه العادة قصة طريفة فقد لاحظ أحد رعاة الابل فى ذات يوم أن جماله بعد أن أكلت من تلك الاوراق اعترتها نشوة غريبة وأخذت فى الترنح والتمدد على الارض فى مرح وانشراح دون أن تشعر بالرغبة فى الحركة او القيام بأى عمل حتى أن ضربها بالهراوات الغليظة لم يكن يحرك منها ساكنا أو ليجلعها تقوم من مكانها وخيل أنها قد أصبحت عديمة الاحساس حتى ولا بالالم لانها بقيت فى الارض متمددة كأنها فى حلم لذيذ فدهش العربى وبقى برهة يفكر فى ذلك الامر الغريب ولم يلبث أن حذا حذوها وأكل هو أيضا من ذلك النبات ومن ذلك الوقت حرص الرعاة على ابعاد ابلهم عن أوراقه وأخذوا هم فى استعمالها واستأثروا هم بها دونها وهكذا عم السرور وانتشر الفرح والحبور فى كل القلوب . على أن طعم القات لايمكن تعريفه ويقال انه عنبرى فيه شىء من المرارة والاهالى يحبونه حب العبادة وينفقون فى سبيل الحصول عليه أكثر مما يصرفونه فى طعـامهم وشرابهم ويمضغون أوراقه كل يوم فى مختلف ساعات النهـار ويستمتعون بآثاره ومفعوله ولـكن التهيج الطبيعى والمحى الذى يحدث من القات يتبعه انحلال وانحطاط . ويقال كذلك ان الافراط فى تعاطيه يجلب النوم والانقباض وضيق الصدر ويكون سببا فى الضعف الجنسى قبل الاوان ويحدث غالبا لماضغى القات المدمنين عند ما يصلون إلى سن الخامسة والثلاثين أو الاربعين أن يصبحوا غير قادرين على ارضاء زوجاتهم .

واليمنيون لايستطيعون العيش بدون هذا النبات العجيب وبالطبع ليس كل القات الذى ينبت فى اليمن له نفس القيمة لان المتفننين فى تعاطيه والهواة يفضلون أوراق القات التى تنبت فوق منحدرات جبل « صبر » ويعتبر « قات » تعز ثروة عظيمة لزارعيه ونعيما مقيما لتلك الخلائق الماضغة . وقد حدث فى الربيع الماضى عندما فتح الامام يحيى حدود بلاده للتجارة مع عدن أن سافرت قافلة من تعز تحمل كمية عظيمة من القات ولـكن هذه القافلة

هوجمت فى سلطنة لحج ونهبت وعندما علم بهذا الرزء العظيم اليمنيون المقيمون فى عدن تكدروا كدرا شديدا ووقعوا فى ضيق شديد والم ممض ولم يتعزوا عن هذا المصاب حتى عندما رأوا الطائرات البريطانية التى أرسلت لتأديب أهالى القرى التى وقعت فيها الحادثة .

وأما المزروعات التى لها شكل الموالح فانها تنتهى هناك حيث يصبح الجبل صحراء جرداء . وهنا بين كومتين هائلتين من الصخور ينفتح كهف عظيم عجيب يقوم على حراسته عدد كبير من الجنود ، هو خزائن الامير . وعلى قمة هذا التل العجيب الذى ينبت القات والذى يحرس كنوز على بن الوزير يقوم قصر منيف أبيض كثير التضاريس والتعاريج له نوافذ كبيرة تزينها مشربيات انيقة كما تقف من حول هذا الجبل مبان جريئة من الصخر تتوج قممها ابراج صغيرة من الحجارة السمراء . وفى الليل عندما يحظر على المواطنين ارتقاء هذه المرتفعات يتظاهر الجنود بالقيام بالحراسة عندما يلقون بصيحاتهم الطويلة من كل برج .

اما البهو الذى بقينا فيه فى انتظار الامير فلم يكن غير غرفة فسيحة الارجاء واطئة بيضاء قد فرش جانبها الخارجى بابسطة ووسائد من كل لون وكانت ترى من نوافذها المفتوحة على الفناء — الجند المتجمعة وبعد اشارة بالبورى يظهر ابن الوزير يسنده من ابطيه رجلان من رجال التشريفات واصحاب المقامات . ويتمتع ابن الوزير بصحة جيدة ولا يزال مستمرا فى انجاب الاولاد رغم نضوج سنه وهو ليس فى حاجة ولله الحمد لان يسنده احد فى تنقلاته ولكن حركة الرجلين كانت لها قيمة تشريفية ولا شىء غير ذلك.

اتجه الامير نحونا ومد يده بالسلام علينا وبعد مصافحتنا ابتسم للقائنا فظهرت ثناياه واسنانه الذهبية وكان يخفى خلف نظاراته السوداء عينا مكفوفة لان الجدرى حرمه من احدى عينيه كما حرمه ايضا من تولى عرش اليمن لان من الشروط اللازم توافرها فى المرشح للانتخاب لامامة اليمن سلامة الجسم .

وكان ابن الوزير يرتدى قميصا طويلا ازرق اللون ذا ازرار معدنية